التدبير مع كتابة المقادير

أ. منى مفتاح سعيد

صدر الكتاب عن المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة في جمهورية مصر العربية عام 2007ف وهو يقع في مئة وخمسة وثمانون صفحة من الحجم المتوسط والمسمى "التنوير في إسقاط التدبير " للإمام أحمد بن عطاء الله السكندري يعلمنا فيه كيف نسقط التدبير مع الله ، وكيف نفوض أمر الرزق إليه ، وكيف نتوكل عليه، وكيف نرضى بما قسم لنا .

أما ما ذكره محمد عبد الله الشاغول في تقديمه لهذا الكتاب ،أنه كتاب عزيز نادر في موضوعه نافع في مادته، وهو نور بين يدي قارئه ، وكيف لا يكون لنا حول ولا قوة مع الله ،وكيف نريح أنفسنا من كدر التدبير، و كيف نصل إلى مراد الله منا في ذلك ، إلى غير ذلك من الكنوز التي لا يعلم قدرها إلا المؤمن العاقل الحريص على السعادة في الدارين .

وكذلك يوضح المحقق أنه اعتمد في تحقيقه لهذا الكتاب على نسخة مخطوطة وأخرى مطبوعة ثم يبدأ الكتاب بترجمة للمؤلف حيث عرفه بأنه الإمام العارف الرباني أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء آل الشيخ تاج الدين أبو الفضل الجذامي السكندري ـأصله من الإسكندرية ثم قطن مصر الشاذلي ، ثم أوضح مذهبه الفقهي حيث نقل رأي تاج الدين السبكي بقوله : أراه كان شافعيا ،وقال غيره كان مالكيا .

وأن له اليد الطولى في العلوم الظاهرة والمعارف الباطنة، إمام في التفسير والحديث ، والأصول ، متبحر في الفقه ،وله وعظ يعذب في القلوب ،ويحلو في النفوس ،وكان قد تدرب بقواعد العلوم الشرعية ،وهذبته العلوم ، فاستدل بالمنطوق على المفهوم، فساد بذلك العصابة الصوفية .

أما عن مشايخه فمنهم الشيخ ياقوت ـ رضي الله عنه ـ وقبله الشيخ أبو العباس المرسي ، ومن تلاميذه شيخ الشافعية التقي السبكي ، وأنه أخذ عنه جمع من الأعيان .

ومن مؤلفاته كتاب " الحكم العطائية " وهو أشهر كتبه ، وقيل فيه ما هذا منشور، إن هذا إلا لؤلؤ منثور، وله كتاب " تاج العروس وأنس النفوس " ،وكذلك كتاب " لطائف المنن في مناقب سيدي الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن " ،وله رسالة في الكلام على قوله تعالى ((وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سواء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم)) ، وله رسالة " هتك الأستار في علم الأسرار " ،ومن كراماته أن الكمال ابن الهمام زار قبره ـ رضي الله عنه ـ فقرأ عنده سورة "هود"حتى وصل الى قوله تعالى ((فمنهم شقي وسعيد)) فأجابه من القبر بصوت عال : يا كمال ليس فينا شقي ،فأوصى الكمال بأن يدفن هناك .

أما ما ذكر عن وفاته قيل توفي رضي الله عنه ـ سنة تسع وسبعمائة، ودفن بالقرافة بقرب بني الوفا ، وقيل أنه توفي سنة سبع وسبعمائة كما جاء في "الطبقات الكبرى " .

ثم تأتي مقدمة المصنف حيث بدأها بقوله "الحمد لله المنفرد بالخلق والتدبير ،الواحد في الحكم والتقدير ، الملك الذي ليس له في ملكه وزير ، ثم أوضح أنه من طلب الوصول إلى الله فحقيق عليه أن يأتي الأمر من بابه ،وأن يتوصل إليه بوجود أسبابه ،وأهم ماينبغي لك الخروج عنه والتطهير منه : وجود التدبير ومنازعة المقادير ،

فصنف هذا الكتب مبينا لذلك ومظهرا لما هناك وسماه"التنوير في إسقاط التدبير"ليكون اسمه موافقا لمسماه وذكر قوله تعالى((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما))(النساء 65)، وقال سبحانه ((وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون))(القصص 68)، وقال سبحانه ((أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى))(النجم 24ـ25)،

وقال صلى الله عليه وسلم " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا"" وقال صلى الله عليه وسلم "اعبد الله بالرضا ،فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير "إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على ترك التدبير ومنازعة المقادير إما نصا صريحا وإما إشارة وتلويحا ، وقد قال أهل المعرفة : من لم يدبر دُبر له ،وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ:إن كان ولابد من التدبير فدبروا أن لا تدبروا ،وقال أيضا :لا تختر من أمرك شيئا واختر أن لا تختار ،وفر من ذلك المختار، ومن فرارك ، ومن كل شيء إلى الله وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ثم ذكر المؤلف مجموعة من الآيات التي يستدل بها على موضوعه وقام بتفسير ما جاء فيها. ثم ذكر فائدة حيث يقول فها : اعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أن يقوي عبدا على ما يريد أن يورده عليه من وجود حكمه ألبسه من أ،وار وصفه ،وكساه من وجود نعته فتنزلت الأقدار وقد سبقت إليه الأنوار، فكان بربه لا بنفسه،فقوى لأعبائها وصبر للأوائها، وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام،وإن شئت قلت: وإنما يقويهم على حمل البلايا واردات العطايا، وإن شئت قلت :وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه .

ثم يقوم المؤلف بشرح كل هذه الأقوال كلاً على حدة ، ثم يذكر بعد ذلك انعطاف في قوله سبحانه ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما))(النساء 65) اعلم أن الأوقات ثلاثة : قبل الحكم، وفيه ، وبعده ، فأما قبل الحكم فبعبوديتهم التحكيم ،وأما في الحكم وبعده فبعبوديتهم عدم وجدان الحرج لأنه ليس كل حكم فُقد الحرج منه، أي :قد يحكم ظاهرا والكراهة عنده موجودة ،فلابد أن ينضم إلى التحكيم فقدان الحرج . قال له القائل : إذا لم يجدوا الحرج المستلزم لثبوت التسليم الذي هو من صفته وجود التأكيد ؟ فالجواب عنه : أن قوله تعالى ((ويسلموا تسليما)) في جميع أمورهم ، فإن قلت : إن ذلك لازم من قوله تعالى ((حتى

يحكموك)). فالجواب أن التحكيم ما أطلقه بل قيده بقوله ((فيما شجر بينهم))فصارت الآية تتضمن ثلاثة أمور :

الأول منها:التحكيم فيما اختلفوا،الثاني :عدم وجود الحرج في التحكيم ،الثالث :وجود التسليم المطلق فيما شجر بينهم وفيما نزل بهم في أنفسهم فهو عام بعد خاص .

ثم ذكر عنوان مقامات اليقين وقال فيه :وإن تبين هذا فأعلم أن مقامات اليقين تسعة وهي : التوبة ، والزهد ،والصبر ، والشكر ،والخوف ، والرجاء ،والتوكل، والمحبة ، والرضا،ولا يصح واحد من هذه المقامات إلا بإسقاط التدبير مع الله والاختيار ،ثم ذكر كل واحدة من هذه المقامات وشرحها بالتفصيل .

ثم ذكر أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك وقام لك في كل ذلك بوجود إبرارك،فقام لك بحس التدبير يوم المقادير،وذكر قوله((ألست بربكم قالوا بلى))الأعراف 172) .

ثم كان ذلك شأنه في بقية الكتاب ما بين انعطاف وبيان وإعلام وفصل ، حيث أورد في فصله الأخير مناجاة من العبد لربه في شأن الرزق والتدبير ، وختم كتابه بدعاء فيه من البلاغة والبيان ما تقشعر له الأبدان .

وفي الختام أقول أن الكتاب جدير بالاقتناء وجدير بالقراءة وأنه بتحقيقه أضيف للمكتبة الإسلامية صرح جديد ويستحب لكل مسلم أن يقتنيه ويتصدر مكتبته وهو مهم لكل باحث وطالب علم، وأُجل الكاتب أكبر أجلال وأثني على المحقق الذي أثرى به المكتبة العربية حيث يستحق منا كل الثناء والتقدير